حوار نبي اللّه إبراهيم -عليه السّلام- مع أبيه آزر -دراسة تداوليّة-

Dialogue of the Prophet of God Ibrahim and his father Azar - Pragmatic study

Le dialogue entre le Prophète de Dieu, Abraham et son père Azar - Etude Pragmatique

فاتح بوزرى
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد اللّه

الإرسال : 13-01-2024 القبول : 17-04-2024 تاريخ النّشر : 24-06-2024

الملخّص

سنتناول بالدّراسة في هذا المقال مقطعا حواريا قائما بين نبي اللّه إبراهيم -عليه الصّلاة والسّلام- وأبيه آزر في سورة مريم -عليها السّلام-، يبدأ من الآية "41" إلى غاية الآية "50"، وهو مقطع قصير يعالج موضوع العبودية المطلقة التي تترفع عن الشّريك.

وقد جاء هذا المقطع في قالب قصصي سريع، ليمثّل مشهدا من دعوة إبراهيم عليه السّلام لأبيه آزر إلى التّوحيد ونبذ الشّرك؛ وذلك وفق نمط حوري هادف، وسيرصد البحث تطبيق مجموعة من النّظريات التّداولية :

أوّلا : نظريّة الأفعال الكلاميّة. ثانيا : نظرية بول غرايس بشقيها : مبدأ التّعاون وقواعد المحادثة، وكذا الاستلزام الخطابي. ثالثا : استراتيجية الخطاب.

كلمات مفتاحية : تداولية؛ أفعال الكلام؛ استراتيجية الخطاب؛ مبدأ التعاون؛ الاستلزام الخطابي.

Abstract

We will study in this article a dialogue excerpt - existing between the Prophet Ibrahim, may God's prayers and peace be upon him, and his father Azar - in Surat Maryam, peace be upon her, starting from verse 41 to verse 50, which is a short clip that deals with the issue of absolute slavery that rises above the partner. This passage came in a quick narrative form, to represent a scene from Ibrahim's call, peace be upon him, to his father, Azar, to unite and reject polytheism; This is according to a purposeful pivotal pattern, and the research will monitor the application of a set of deliberative theories.

Keywords: pragmatics; speech acts; discourse strategy; principle of cooperation; rhetorical implication.

Résumé

Dans cet article, nous étudierons un extrait de dialogue - qui a lieu entre le Prophète de Dieu Abraham, et son père Azar. dans la sourate Maryam, à partir du verset "41" jusqu'au verset "50". Il s'agit d'un court clip qui aborde le thème de l'esclavage absolu qui s'élève au-dessus du partenaire.

Ce clip s'est présenté sous une forme narrative rapide, pour représenter une scène de l'appel d'Abraham, à son père Azar, au monothéisme et au rejet du polythéisme. Ceci selon un modèle heuristique délibéré, et la recherche surveillera l'application d'un ensemble de théories commerciales :

Premièrement: la théorie des actes de langage. Deuxièmement: la théorie de Paul Grice avec les deux côtés: le principe de coopération et les règles de conversation, ainsi que l'obligation rhétorique. Troisièmement: stratégie de discours.

Mots-clés: actes de langage ; stratégie de discours ; le principe de coopération; implication rhétorique.

1. مقدّمة

أفرزت المعرفة اللّسانيّة المعاصرة نظريات ومفاهيم لغويّة كثيرة في الأسس المعرفيّة، انبثقت عنها تيارات لسانية جديدة على غرار التّيار التّداولي.

لقد قامت التّداوليّة بدراسة المعنى كما يوصله المتكلّم، ويفسّره المستمع؛ وفسّرت ما يعنيه المتكلّمون في سياق معيّن، وحاولت التّمعن في الآلية التي يُنَظِّم المتكلّمون من خلالها ما يريدون قوله، وفقا لهويّة الذي يتكلّمون إليه، وأين، ومتى، وتحت أيّة ظروف؛ وبحثت في الكيفيّة التي يصوغ من خلالها المستمعون استدلالات حول ما يقال؛ للوصول إلى تفسير المعنى الذي يقصده المتكلّم.

وأخذت التّداوليّة على عاتقها التّنقيب عن كيفيّة إدراك قدر كبير ممّا لم يتمّ قوله على أنّه جزء ممّا يتمّ إيصاله؛ واهتمّت أيضا بالمظاهر غير الحقائقيّة للملفوظ، وبالاستراتيجيات التّأويلية للمخطاب، وبدراسة الأفعال الكلاميّة.

2. الأفعال الكلامية (les actes de langages)

تختصّ هذه النظريّة بدراسة القيم التّخاطبية المُضَمّنة داخل الملفوظ، والتي تسمح له بالاشتغال كفعل لغوي خاص، وقد نظّر لهذه النّظريّة كلّ من أوستن (Austin) وسورل (John Searl) في بداية السّبعينات[1].

1.2. أوستن وأفعال الكلام

1.1.2. تعريف الأفعال الكلامية : تعرّف أفعال الكلام بأنّها: «الوحدة الصغرى التي بفضلها تحقّق اللّغة فعلا بعينه (أمر، طلب،

1- دومينيك مانغنو، 2008م، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، ص 7.

تصريح، وعد ...) غايته تغيير حال المخاطَبين. إنّ المتلفّظ المشارك (co-énonciateur) لا يمكنه تأويل هذا الفعل إلاّ إذا اعترف بالطّابع القصدي لفعل المتلفّظ»[1].

انطلق أوستن من قناعة أنّ الوحدة الصّغرى للتّواصل ليست الجملة؛ بل الإنجاز (exécution) (بكفاءة) لبعض الأفعال (acte).

وأنّ الجمل التي ليست أسئلة، ولا جمل أمرية (impératives)، أو تعجّبيّة (exclamatives) فقط، ولا تستعمل لوصف الحقيقة، وليست خاضعة لمعياري الصّدق والكذب؛ ولكن تستخدم من أجل تغيير الحقيقة وتغيير العالم.

والهدف الرئيسي هنا يكمن في التّأسيس لموضوع القوّة الإنشائية (force illocutoire) لأيّ كلام ممكن بالصّورة التي يتواجد بها منجزا في البنية التركّيبية للّغات الطبيعية.

2.1.2. أفعال التّلفظ : حين نتلفّظ بقول ما نقوم بثلاثة أفعال، وهي المشكّلة لأقسام الفعل الكلامي:

1.2.1.2. الفعل الكلامي (acte locutoire) : يمكن تحديده بعرضه على صيغة «قال بأنّ»؛ وهو تلفّظ لمجموعة من الأصوات لها نظام تركيبي معيّن، يحيل إلى شيء ما؛ أي نتاج جملة مزوّدة بمعنى ومرجع، ويتشكّل من عناصر يستدعي كلّ واحد منها الآخر :

1- المرجع نفسه، ص 7.

عرف ديكرو Ducrot الفعل اللّغوي بأنّه «نشاط يقوم به شخص معين يمكن اعتباره فعلا أو عملا إذا كنا نحدده انطلاقا من التغييرات المتعلقة بالوضع الفزيائي أو الاجتماعي للمتكلّم».

- O. Ducrot, (1980) Dire et ne pas dire principes de sémantique linguistique, Editions Harman, Paris, 2ème éd, et 3ème éd. (1991). p 7.

- الفعل الصّوتي (acte phonétique)؛ النّطق بالأصوات.
- والفعل التّعبيري (acte phatique)؛ نتاج التّلفظ وفق قواعد صرفيّة ونحويّة.
- والفعل البلاغي (acte rhétique)؛ استخدام كلمات لأداء معنى ذي مرجعيّة.

2.2.1.2. الفعل الإنشائي/ الإنجازي (acte illocutoire) : يتحدّد بعرضه على صيغة "أؤكّد أنّ"؛ وهو الفعل المنجز؛ فالمتكلّم حين يتلفّظ بقول ما فهو ينجز معنى قصديّا أو تأثيرا مقصودا، ويسمى بقوّة الفعل (force de l'acte)، وقد يتضمّن فعل القول بعض الأفعال أو الصيغ التي من شأنها تغيير العلاقة بين الفاعلين أو المتكلّمين (التّوكيد، الوعيد، إلخ).

3.2.1.2. الفعل التّأثيري (acte perlocutoire) : يتحدّد بعرضه على صيغة "أقنعني"؛ وهي الآثار (effets) التي تترتّب عن فعل الكلام؛ إذ لكلّ كلام أثر يتجاوز اللّحظة التي قيل فيها، ويُحدث ردود أفعال سواء من قبل المتكلّمين أو المستمعين، وكذا ردود فعل على مستوى المشاعر والتّصرّفات، فالاستفهام مثلا قد يكون هدفه: تملّق مخاطب أوّل، إظهار التّواضع لمخاطب ثاني، أو مضايقة مخاطب ثالث.

3.1.2. أقسام الأفعال الإنشائية : قدّم أوستن تقسيما للأفعال الإنشائية (actes illocutoires) يقوم على هذه المحاور:

1.3.1.2. أفعال الحكم/ تقريرية (verdictifs) : تتأسس بمجرّد إصدار الحكم من طرف السّلطة القائمة على نفوذها، والمعترف بها رسميّا، أو سلطة أخلاقيّة، حيث لا يشترط أن تكون قضائيّة دائما إلزاميّة، فهي تدلّ على التّقييم أو التّقويم أو الملاحظة، وتهدف إلى «ذكر ما تمّ قوله حول موضوع معيّن من خلال القنوات الرّسميّة أو غير الرّسميّة، انطلاقا من الشّهادات أو من الاستنباط العقلي»[1].

1- John Austin. 1970. Quand dire c'est faire. Traduit de l'anglais par Gilles lane. Seuil. Paris. p 155.

2.3.1.2. أفعال الممارسة (exécutifs) : ما يتعلّق «بصياغة حكم ما سواء أكان إيجابيا أم سلبيا على سلوك ما، أو على تبريرات هذا السلوك»[1]؛ أي تمرين القدرة أو تمرين التّأثر والاستمالة، كما لها قدرة في فرض واقع جديد، وهذه الأفعال تظهر أكثر أثناء تشكيل قرار يكون إمّا مقبولا وإمّا مرفوضا.

3.3.1.2. أفعال الوعد (permissifs) : الهادفة إلى «حمل المتكلّم على تبني موقف أو سلوك ما»[2]؛ أي إجبار المتكلّم على تبني سلوك معيّن، وحمله على الالتزام بمحتوى القول، فمن يعد بشيء فهو مرغم أخلاقيّا بالالتزام بالوعد.

4.3.1.2. أفعال السّلوك (comportatifs) : المتضمّنة «ردّ فعل اتّجاه سلوك الآخر»[3]؛ أي التّصرف بسلوك ما إزاء آخرين أو إزاء أنفسنا، وكذا المواقف المتخذة، والمنصوص عليها في الأقوال إزاء المخاطبين.

شمل أفعال الحكم على سبيل المثال : أفعال التّبرئة، التّحليل، الحكم، التّقدير، إصدار مراسيم، ومثل الأفعال الآتية أيضا : قيّم (évaluer) ورتّب (classer) وأدان (condamner) ووصف (décrire) وغيرها.

1- John Austin. Quand dire c'est faire. p 157.

من الأمثلة على ذلك : أمر (ordonner) اختار (choisir) وطالب (revendiquer) وأعلن (annoncer) وختم (جلسة أو اجتماع) (déclarer)وتوسّل (supplier) عيّن، وجّه، إلخ.

2- John Austin. Quand dire c'est faire. p 159.

أمثلة ذلك : وعد (promettre) ضَمِنَ (garantir) وتبنى (Adopter) وعارض (Opposer) وأقسم (Jurer de) ألزم، وتبنى، وراهن، إلخ.

3- John Austin. Quand dire c'est faire. p 1161.

من أهمّ أمثلتها : تقديم الاعتذارات والتشكرات، والامتنان والتأديب كالتهاني وعرض المشاعر الحميمة والتّعازي والانتقادات، التّحيات (إلقاء التحية) التّمنيات المباركة، التهاني. من مثل : اعتذر(s'excuser) شكر (remercier) وهنّأ (féliciter) واشتكى (se plaindre) ووبّخ(blâmer) .

5.3.1.2. أفعال العرض (expositifs) : تستخدم في العروض، وتهدف إلى «تفسير وجهة نظر ما أو المسار الذي يتّخذه احتجاج ما، وقد تكون توضيحا للكيفيّة التي وظّف بها المضمون المرجعي للمفردات»[1].

2.2. سيرل وأفعال الكلام

اقترح سيرل تصنيفا آخر لنجاح فعل القول وتحقيق هدفه؛ حيث حصرها في وضعيّة المشاركين في فعل القول ونواياهم ومقاصدهم، ثمّ في الأثر الذي يبتغيه من وراء ذلك الفعل، وذلك بمراعاة الظّروف الخارجيّة المحيطة بعمليّة الحوار أو الخطاب، والظّروف النّفسيّة التي تكتنف كلاّ من المستمع والمتكلّم، وبيّن أوستين كيف يمكن للمتكلّم أن يقول شيئا وهو يقصد إلى شيء آخر مغايرا تماما.

1.2.2. أفعال التّلفظ : إنّنا حين ننطق أو نتلفّظ بقول ما نقوم بأربعة أفعال هي :

1.1.2.2. إنجاز فعل التّلفظ (التّلفظ بالكلمات).

2.1.2.2. الإحالة والإسناد (إنجاز فعل القضيّة).

3.1.2.2. إنجاز فعل قوّة التّلفظ (فعل الكلام الغرضي).

4.1.2.2. فعل أثر التّلفظ (فعل الكلام التّأثيري) وهو المفهوم الذي يجسّد النّتائج والتّأثيرات التي تحدثها الأفعال الإنجازيّة السّابقة على أفكار ومعتقدات المستمع.

1- John Austin. Quand dire c'est faire. p 162.

من أمثلة ذلك : أكّد (affirmer) نفى (nier) لاحظ (remarquer) وأجاب (répondre) وقبل (accepter) وصحّح (corriger)، إلخ.

2.2.2. تصنيف سيرل للأفعال الكلامية : يصنف سيرل[1] الأفعال الكلاميّة إلى :

1.2.2.2. أفعال تمثيلية / الإثبات (représentatives) : تلزم المتكلّم بصدق القضيّة المعبّر عنها، ومن أمثلتها أفعال التّقرير والاستنتاج.

2.2.2.2. أفعال التّوجيه (directives) : تمثّل محاولات المتكلّم لتوجيه المستمع للقيام بعمل ما، ومن أمثلتها أفعال الطّلب والسّؤال.

3.2.2.2. أفعال التزاميّة (promissives) : تلزم المتكلّم بالنّهوض بسلسلة من الأفعال المستقبليّة، ومن أمثلتها أفعال العرض والوعد والوعيد.

4.2.2.2. أفعال تعبيريّة (expressives) : تعبّر عن حالة نفسيّة المتكلّم، ومن أمثلتها الشّكر والاعتذار والتّرحيب والتّهنئة.

5.2.2.2. أفعال إعلانيّة (déclaratives) : تحدّث تغيّرات فوريّة في نمط الأحداث العرفيّة، والتي غالبا ما تعتمد على طقوس اجتماعية ولغويّة تتّسم بالإطالة[2].

1- طوّر سيرل شروط الملائمة فجعلها في أربعة شروط :

- المحتوى القضوي : أن يكون للكلام معنى قضوي من خلال قضية تقوم على مرجع متحدث عنه أو متحدث به.
- الشرط التّمهيدي : أن يكون المتكلم قادرا على إنجاز الفعل.
- شرط الإخلاص : أن يكون المتكلم مخلصا في أداء الفعل.
- الشّرط الأساسي : تأثير المتكلّم في السّامع.

2 - Nathalie Garrie et Frédéric Calas. 2007. Introduction à la pragmatique. Hachette. p 90.

من أمثلتها : أفعال الحرمان الكنسي، وإعلان الحرب، وطقوس التّنصير، والزّواج، وأفعال الطّرد، والإقالة من العمل.

وعلى الرّغم من الإسهامات البالغة التأثير التي قدّمتها نظرية أفعال الكلام للدّراسة التّداولية إلاّ أنّها لا تخلو من بعض وجوه القصور المتأصّلة فيها؛ لأنّ نظرية أفعال الكلام تعتبر نظرية ناقصة إلى حدّ ما في إطارها العادي، وهي عاجزة عن تقدير التّفاعل بين العرف والسياق الحالي حقّ قدره[1].

3.2. الأفعال الكلاميّة في المقطع الحواري

1.3.2. الطلبيات

1.1.3.2. الاستفهام: قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42)﴾، الفعل الكلامي (لِمَ تَعْبُدُ) الغرض الإنجازي هو النّصح.

قال تعالى : ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)﴾، الفعل الكلامي (أَرَاغِبٌ) الغرض الإنجازي هو الإنكار؛ «والاستفهام للإنكار إنكارا لِتَجَافِي إِبْرَاهِيمَ عَنْ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ»[2].

2.1.3.2. النّهي : قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)﴾، الفعل الكلامي (لَا تَعْبُدِ) الغرض الإنجازي هو التّحذير، «ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص، وكلّ من هو عاص حقيق بأن تستردّ منه النّعم، وينتقم منه»[3].

1- روبيت ديبوغراند ولفغانغ دريسلر، 1992م، مدخل إلى علم لغة النص، تر إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مطبعة دار الكتاب، ط1، ص 159.

2- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ)، 1984 هـ، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، ج 16، ص 118

3- شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت 1270هـ)، 1415 هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج8، ص415.

3.1.3.2. الأمر : قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41)﴾، الفعل الكلامي (وَاذْكُرْ) غرضه الإنجازي هو طلب من الأعلى إلى الأدنى، وهو أمر حقيقي.

قال تعالى : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)﴾، الفعل الكلامي (فَاتَّبِعْنِي) غرضه الإنجازي هو النّصح والإرشاد.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)﴾، الفعل الكلامي (اهْجُرْنِي) غرضه الإنجازي هو التّهديد؛ ذَلِكَ أَنَّهُ هَدَّدَهُ بِعُقُوبَةٍ آجِلَةٍ إِنْ لَمْ يُقْلِعْ عَنْ كُفْرِهِ بِآلِهَتِهِمْ، وَبِعُقُوبَةٍ عَاجِلَةٍ؛ وَهِيَ طَرْدُهُ مِنْ مُعَاشَرَتِهِ وَقَطْعُ مُكَالَمَتِهِ.

2.3.2. الإخباريات :

قال تعالى : ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47)﴾، الفعل الكلامي (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) غرضه الإنجازي هو الوعد؛ حيث أَظْهَرَ إِبْرَاهِيمُ حِرْصَهُ عَلَى هِدَايَةِ والده، فَقَالَ : أَطْلُبُ مِنْهُ سبحانه لَكَ الْمَغْفِرَةَ مِنْ هَذَا الْكُفْرِ، بِأَنْ يَهْدِيَك ... إِلَى التَّوْحِيدِ فَيَغْفِرَ لَك الشِّرْكَ الْمَاضِيَ.

قال تعالى : ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)﴾، الفعل الكلامي (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) غرض الإنجازي هو التّحذير؛ لأنّ «الشّيطان عاص مستكبر ... ولا ريب في أنّ من أطاع العاصي يكون عاصيا، وجديرا بأن تسترد منه النّعم، وحقيقا بأن تنزل عليه النّقم»[1].

1- أحمد بن مصطفى المراغي (ت 1371هـ)، 1946 م، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، ج16، ص 56.

قال تعالى : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾، الفعل الإجازي (فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) غرض الإنجازي هو التّحذير.

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41)﴾، الفعل الكلامي (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) غرضه الإنجازي هو المدح، وهذا «لفَرْط صِدْقه فِي امْتِثَال مَا يُكَلِّفُهُ اللهُ تَعَالَى، لَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ مَا قَدْ يَكُونُ عُذْرًا لِلْمُكَلَّفِ؛ مِثْلَ مُبَادَرَتِهِ إِلَى مُحَاوَلَةِ ذَبْحِ وَلَدِهِ حِينَ أَمَرَهُ اللهُ بِذَلِكَ فِي وَحْيِ الرُّؤْيَا.

3.3.2. التّعبيريات :

قال تعالى : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾، الفعل الكلامي (فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) وغرضه الخوف؛ أي يا أبي إنّي أخاف لمحبتي لك، وغيرتي عليك، أن يصيبك عذاب من الرّحمن على شركك وعصيانك[1].

قال تعالى : ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)﴾، الفعل الكلامي (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) وغرضه الغضب؛ أي لئن لم تنته عمّا أنت فيه من النّهى عن عبادتها، والدّعوة إلى ما دعوتني إليه، لأرجمنك بالحجارة، فاحذرني وابعد عني بالمفارقة من الدّار والبلد دهرا طويلا ... قابل الأب رفق الابن بالعنف، فلم يقل (يا بني) كما قال الابن (يا أبت)، وقابل وعظه بالسّفاهة؛ إذ هدّده بالشّتم أو بالضّرب بالحجارة.

1- المراغي، تفسير المراغي، ج16، ص 57.

3. نظريّة بول غرايس

يعدّ «بول غرايس»[1] أحد اللّسانيين التّداولين المشهورين في زماننا هذا، وقد تحدّث على مفهومين مهمّين هما: مبدأ التّعاون، والاستلزام الخطابي.

1.3. مبدأ التّعاون وقواعد المحادثة[2] : لا يعتمد فهم الملفوظات وتأويلها على معنى الجملة أو السّياق سواء اللّساني أو غير اللّساني فقط؛ وإنّما يرتكز أيضا على ما يبذله المتحاورون من مجهودات لإنجاح التّواصل؛ وهو ما سماه غرايس بـ: "مبدأ التّعاون"؛ والذي يكون بين المتكلّم والمخاطب.

يعتبر (مبدأ التّعاون) كالعمود الفقري للنّشاط الكلامي؛ حيث يسهم في تسهيل التّفاهم، وتحقيق التّأثير، وإنجاز الفعل، ويؤدي إلى التّواصل التّفاعلي بين المتخاطبين عن طريق اللّغة، ويقتضي هذا الفعل عملين متوازيين: الإنتاج والتّأويل، ويؤسس هذا المبدأ بأنّ الحوار بين البشري يجري وفق ضوابط، وتحكمه قواعد يدركها كلّ من المخاطَب والمتكلّم، فحين يسأل زوج زوجته :

ج1 : أين مفاتيح السّيارة ؟ فتجيب : ج 2 : على المائدة.

1- نشر مقالا في الدّلالة (The Meaning) سنة (1957م) وألقى محاضرات حول: «فلسفة وليان جيمس» بجامعة هارفرد سنة (1967م)، كما توسع في توصيف العلمليّات الذّهنية اللاّزمة لفهم الملفوظات وتأويلها في مقاله المشهور (منطق المحادثة) سنة (1975م)، سجّل فيه تطورا في مفهوم الدّلالة غير الطبيعية، وصاغ مقاربة فريدة لإنتاج الجمل وتأويلها.

Grice H P. 1975. logic and conversayion. In Syntax semantics. 3 speech arts Cole and Morgan. P 41 / 58.

2- تعدّ المحادثة من أبرز أشكال الخطاب وأدّلها على طبيعة الاتّصال التي تتسّم بالتّفاعل وتعدّد الأطراف، وعلى قول بعضهم المشروع تعاوني؛ تَضبطه القواعد؛ والغرض من القواعد هو معرفة مقصدية المتكلم، ومدى إدراك السّامع لكلامه، وهذه القواعد (قواعد المحادثة) تضبط التّواصل فيما بينهم.

ففي هذا الحوار تتمثّل مبادئ التّعاون التي قرّرها «غرايس»؛ حيث أجابت الزّوجة إجابة واضحة (الطّريقة)، وكانت صادقة (الكيف)، واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون أن تزيد (الكمّ)، وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها (المناسبة)، لذلك لم يتولّد عن قولها أي استلزام؛ لأنّها قالت ما تقصده[1].

يقوم مبدأ التّعاون عند «غرايس» على الجملة الآتية: «لتكن مساهمتك في المحادثة وقت وقوعها، متماشية مع ما يتطلّبه الهدف أو الوجهة المقبولة للتّبادل اللّغوي الذي شرعت فيه»[2]، ويمكن صياغة هذا المبدأ العام بواسطة أربع قواعد فرعيّة هي :

1. مبدأ الكمّية (الكمّ) : يجب أن يكون الحوار مناسب دون زيادة أو نقصان.
2. مبدأ النّوعيّة (الكيفية)[3] : لا ينبغي قول ما هو غير صحيح، أو ما ليس فيه دليل عليه.
3. مبدأ المناسبة : مناسبة الكلام للموضوع.

1- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1، 2002م، ص 35.

2 -Anne Reboul J. Moesculer. 1994. Dictionnaire encyclopédique de pragmatique. Seuil. p 20.

3- يحيلنا القصد إلى ذلك المبدأ التداولي الذي اشتقه طه عبد الرحمن من التراث العربي الإسلامي والذي سماه : مبدأ التصديق وهو كما صاغه: لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك. طه عبد الرحمن، 1998 م، اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، ص 250. جعل من هذا المبدأ مبدأ تتفرع منه قواعد أهمها قاعدة القصد وهي : «لتتفقد قصدك في كلّ قول تلقي به إلى الغير، ويترتب عن هذه القاعدة أمران : أحدهما : وصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي للملاحظة، والآخر : إمكان الخروج عن الدلالة الظاهرة للقول». المرجع نفسه، ص 250. ونعني بالخروج عن الدلالة الظاهرة للقول : المقاصد الكامنة أو الإجمالية في الخطاب.

4.مبدأ (العلاقة) الطريقة : أي الوضوح والتّحديد مع تجنب الغموض، واللّبس، والقيام بالإيجاز وترتيب الكلام[1].

تتجلّى قيمة هذه المبادئ في تمكين المتلقي من أن يخرج إلى بعض النّتائج، التي يعالجها غرايس تحت تسمية : الاقتضاءات، ويسعى غرايس باستعماله هذا المصطلح إلى تمييز بعض ما يمكن أن يستنتج من القول عن الاقتضاءات المنطقيّة الحقيقية؛ فالاقتضاءات[2] مؤسّسة على استعمال اللّغة من جهة، وتأخذ بعين الاعتبار الذي لم يقل، والضّمنيات، والحذف من جهة أخرى.

تمثّلت صيغة مبدأ التّعاون في «ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلبه الحوار، وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه، أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار»[3]، وقد تحقّق ذلك في العمليّة التّخاطبية بين إبراهيم -عليه السّلام- وأبيه؛ لأنّ القصد من محاورته هو دعوته لأبيه كي يترك عبادة الأصنام ويعبد الله وحده، كما احتوت محاورته جميع القواعد المتفرّعة عن مبدأ التّعاون :

> كان إبراهيم محترما لـ"قاعدة الكمّ"؛ حيث قدّم من الكلام الذي يفيد المخاطب على قدر حاجته، ولم يتعدّ القدر المطلوب؛ حيث بيّن إبراهيم لأبيه أنّه على ضلال بعبادته للأصنام، وأنّ الذي يستحقّ العبادة هو الله وحده، وبيّن له عاقبة الذين يتّبعون الشّيطان.

1- آن روبول وجاك موشلار، 2003، التّداولية اليوم، تر سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، بيروت، دار الطليعة، ط1، ص 55. فرانسواز أرمينكو،، المقاربة التّداولية، تر سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص 54.

2- مفهوم الاقتضاء هو الذي سمح بتفسير الفرق بين دلالة الجملة (la signification de la phrase) ومعنى القول (sens de l'énoncé).

3- عبد الهادي بن ظافر الشهري، 2004 م، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، ص 121.

كما احترم "قاعدة الكيف"؛ فهو لم يخبره بما يعلم كذبه؛ بل أخبره بالعلم الذي علّمه ربّه، وكان متيقّنا من صحّة ما يدعو إليه، كما لم يقل ما ليست له عليه بيّنة.

أمّا "قاعدة المناسبة"؛ فكانت حاضرة في المحاورة، فمقامه هو مقام الدّعوة إلى الله، كما راعى إبراهيم عليه السّلام مقام والده، فكان كلامه معه في غاية اللّطف، ومنتهى الأدب.

أمّا "قاعدة العلاقة"؛ الممثّلة في التّحرز من الالتباس ومن الإجمال، والكلام بإيجاز، وترتيب الكلام، فهي واضحة جليّة من السّياق اللّغوي للآية، يلاحظها القارئ من دون استعانة بأيّ شرح.

2.3. الاستلزام الحواري (الخطابي / المحادثي) : إنّ مفهوم الاستلزام الحواري مفهوم شائك، ولا يتسّم، وإنّ الغموض الذي يشوب هذا المفهوم هو الذي يُمكّن من توظيفه في تحقيق وظائف مشبوهة، كالتّظليل والإبهام، ولهذا ميّز "غرايس" بين المعنى الدّلالي والمعنى التّداولي للجملة[1]؛ فالمعنى الدّلالي: هو المعنى المعجمي مضاف إليه العلاقات النّحوية ،واصطلح على تسميته بالفعل اللّغوي المباشر، والمعنى التّداولي: هو المعنى الذي يستلزمه الحوار بين متكلّم ومستمع، ولهذا المعنى قوّة إنجازيّة، الذي هو فعل أدائي ينجز أثناء النّطق به؛ أي أنّ المتكلّم عندما يتلفّظ بقول ما فهو يُنجز فعلا صريحا أو ضمنيا.

1- عمد غرايس إلى إيضاح الاختلاف بين: ما يقال، وما يقصد : وهو المعنى نفسه المقصود بـ"المعنى الدلالي والمعنى التداولي". فـ"ما يقال" هو : ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللّفظية. و"ما يقصد" هو : ما يريد المتكلم أن يبلغه السّامع على نحو غير مباشر، اعتماداً على أن السّامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال. ونتيجة لهذا كان يفرق بين المعنى الصريح وبين ما تحمله الجملة من معنى متضمن فنشأت عنده فكرة الاستلزام.

لاحظ "غرايس" أنّه يتمّ الانتقال من القوّة الإنجازية المباشرة إلى القوّة الإنجازية غير المباشرة من خلال شرحه لمبدأ التّعاون، واستند في مفهومه هذا على أسس تداوليّة للخطاب، وأنّه لا يتمّ تأويل العبارات في اللّغات الطبيعية إلاّ من خلال الاقتراحات التي وضعها :

1. معنى الجملة المتلّفظ من قبل المتكلّم في علاقته بالمجتمع.

2. المقام الذي تُنجز فيه الجملة.

3. مبدأ التّعاون (principe de coopération).

يبقى الاستلزام الحواري من أبرز الظواهر التي تُميز اللّغات الطبيعية، على اعتبار أنّه في الكثير من الأحيان يلاحظ أثناء عمليّة التّخاطب أنّ معنى العديد من الجمل إذا رُوعي ارتباطها بمقامات إنجازها لا ينحصر فيما تدلّ عليها صيغها الصّوريّة.

إنّ الاستلزام الحواري -كونه آلية من آليات إنتاج الخطاب- يقدّم تفسيرا لقدرة المتكلّم على أن يعني أكثر ممّا يقول الفعل؛ أي أكثر ممّا تؤديه العبارات المستعملة مثالا:

ج 1 : «ناولني الكتاب من فضلك».

إنّ هذا الملفوظ المنجز في مقام محدّد يخرج من معناها؛ من معنى الطّلب (الأمر) إلى معنى الالتماس، وهو ما تفيده القرينة من فضلك؛ فخرق مبادئ الحوار هو الذي يولّد الاستلزام[1]، فحين تقول أم لولدها:

ج1 : أتشعر بالنّعاس ؟ فيجيب : ج2 : لا أرغب في تنظيف أسناني[2].

1- أحمد المتوكل، 1986م، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط1، ص 95.

2- آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ص 61.

لا نجد الطفل قد أجاب إجابة مناسبة على السّؤال؛ ولكن ما الذي جعل الطفل يخرق هذا المبدأ، ويجيب إجابة غير مناسبة ! وإذا نظرنا وفق مبدأ التّعاون، فإنّنا نجد الإجابة تستلزم رفض الطفل للنّوم، لعدم رغبته في تنظيف أسنانه.

لقد كان "غرايس" يبحث للإجابة عن سؤال : «كيف للمتكلّم أن يقول شيئا ويعني شيئا آخر؟ وكيف للمخاطب أن يسمع ويفهم شيئا آخر؟».

ولهذا كان الاستلزام عبارة عمّا ينتج عن خرق القواعد[1]؛ إذ يكون ذلك في سياق خاصّ يحتاج فيه كلّ طرفيّ الخطاب إلى معلومات إضافيّة؛ ولهذا فإنّه يكون أكثر تعقيدا في الاستدلال لمعرفة قصد المرسل، فمعظم التّلفظات التي تستغل الحكم تندرج تحت الاقتضاء الخاص؛ والاستلزام الحواري[2] متغير دائماً بتغير السّياقات التي يرد فيها[3]، فحين يقال : «كم

1- إنّ ظاهر الاستلزام الحواري تنتج عن خرق إحدى المسلمات (القواعد) الأربعة، وعدم احترام مبدأ التّعاون، كأن يقصد المتكلم عمدا خرق المسلمات أو القواعد الأربعة، أو أن يرفض مسايرة الحوار معبرا عن ذلك بقوله إنّ شفتي قد زمّتا، أو أن تتعارض قاعدتان (قاعدة الكمية والكيفية مثلا).

2- الاستلزام العرفي (النّموذجي)؛ هو نوع من أنواع الاستلزامات، وهو قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللّغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها، لا تنفك عنها مهما اختلفت السّياقات، وتغيّرت التّراكيب، من ذلك (لكن) فهذا يستلزم أن يكون ما بعدها مخالفاً لما يتوقّعه السّامع، مثل: ج1: زيد غني؛ لكنّه بخيل. كما يتمثّل في المعاني الاصطلاحيّة الصّريحة التي تلازم الجملة في مقام معيّن، مثل دلالة الاقتضاء، ويتمثّل أيضا في معاني الألفاظ التي اصطلح عليها أهل اللّغة، وهي المعاني الأصلية المباشرة دون المجازيّة، والمعاني التّركيبية والسّياقية، وهي المعاني المعجميّة المباشرة، ويسمّونها «المعنى الحرفي»؛ لأنّها تتغيّر بتغير التّركيب والسّياق. وهناك عند المتقدمين معان غير مباشرة وتسمى «معنى المعنى»، ومنها التّراكيب الاصطلاحية التي يعبّر تركيبها عن معنى مخصوص به، وبعضها يجوز فيه المعنى المباشر والمعنى المجازي، مثل: «Break the ice» المعنى المباشر (الحرفي) «اكسر الثلج»، والمعنى المجازي: «مهد الأمور أو مهد الطريق لأمر ما».

3- نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 33.

الساعة ؟»، فإنّ مقصد المتكلّم يختلف حسب السّياق الذي وردت فيه الجملة، فقد يكون سؤالاً، وقد يكون توبيخاً للتأخّر، وهكذا يعدّ الاستلزام الحواري متغيرا بتغيّر السّياقات التي يرد فيها، ويعدّ الحوار الحقل الفعال والمباشر للتّفاعل اللّغوي، ويكشف عن البعد الاستعمالي في تحقيق المتحاورين.

3.3. المعاني المستلزمة من الآيات

سنقوم الآن بدراسة الاستلزامات الحواريّة في الأساليب الإنشائية الواردة في الآيات :

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41)﴾، ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي طلبي؛ يتمثّل في فعل (اذْكُرْ)؛ حيث أمر الله تعالى محمّدا -صلى الله عليه وسلم- أن يذكر إبراهيم -عليه الصّلاة والسّلام- وما كان من أمره، والمعنى المستلزم من فعل الأمر هو التّبليغ والتّلاوة.

قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42)﴾.

- الموضع الأوّل : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي طلبي؛ يتمثّل في النّداء (يَا أَبَتِ)؛ حيث نادى إبراهيم -عليه السّلام- والده بنداء خفيف ومتأدّب، والمعنى المستلزم من النّداء هو التّنبيه؛ خاصّة وأنّ المحاورة في بدايتها؛ وهذا كي يستحضر الوالد ذهنه، ويفهم المراد جيّدا.
- الموضع الثّاني : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي آخر (لِمَ تَعْبُدُ)؛ ويتمثل في الاستفهام، والاستفهام هنا يحمل معنى قضويّا مباشرا، وهو المعنى الحقيق للسّؤال، والمعنى المستلزم من الاستفهام هو التّعجيز، والْوَجْهُ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ الِاسْتِفْهَامَ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقِيقَتِه، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ صَاحِبُ «الْكَشَّاف»، وَمُكَنَّى بِهِ عَنْ نَفْيِ الْعِلَّةِ الْمَسْئُولِ عَنْهَا بِقَوْلِه ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّعْجِيزِ عَنْ إِبْدَاءِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ، فَهُوَ مِنَ التَّوْرِيَةِ فِي مَعْنَيَيْنِ يَحْتَمِلُهُمَا الِاسْتِفْهَامُ».

قال تعالى : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)﴾.

- الموضع الأوّل : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي (يَا أَبَـت)؛ وهو أسلوب إنشائي ينتمي للأفعال الإنجازية، والمعنى المستلزم من النّداء هو التّوكيد على أهمّية ما يدعو إبراهيم -عليه السّلام- أباه إليه؛ وإِعَادَةُ نِدَائِهِ بِوَصْفِ الْأُبُوَّةِ تَأْكِيدٌ لِإِحْضَارِ الذِّهْنِ وَلِإِمْحَاضِ النَّصِيحَةِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ النِّدَاءِ الْأَوَّلِ.

- الموضع الثّاني : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي طلبي (فَاتَّبِعْنِي)، ويظهر فعل ذلك المعنى المستلزم من النّداء والأمر؛ والمتمثل في إصرار سيدنا إبراهيم على النّصيحة لأبيه؛ قَالَ الزمخشري : «ثُمَّ ثَنَّى بِدَعْوَتِهِ إِلَى الْحَقِّ مُتَرَفِّقًا بِهِ مُتَلَطِّفًا، فَلَمْ يُسَمِّ أَبَاهُ بِالْجَهْلِ الْمُفْرِطِ وَلَا نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ الْفَائِقِ؛ وَلَكِنَّهُ قَالَ : إِنَّ مَعِي طَائِفَةً مِنَ الْعِلْمِ لَيْسَتْ مَعَكَ، وَذَلِكَ عِلْمُ الدَّلَالَةِ عَلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ، فَلَا تَسْتَنْكِفْ، وَهَبْ أَنِّي وَإِيَّاكَ فِي مَسِيرٍ وَعِنْدِي مَعْرِفَةٌ بِالْهِدَايَةِ دُونَكَ فَاتَّبِعْنِي أُنْجِكَ مِنْ أَنْ تَضِلَّ وَتَتِيهَ»[1]، والمعنى المستلزم أيضا؛ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يَرَى نَفْسَهُ عَلَى عِلْمٍ عَظِيمٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ كَبِيرَ دِيَانَةِ قَوْمِهِ، وَأَرَادَ إِبْرَاهِيمُ عِلْمَ الْوَحْيِ وَالنُّبُوءَةِ.

قال تعالى : ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)﴾.[2]

1- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407 هـ، ج3، ص 19.

2- قوله تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فعل إخباري يستلزم معنى التعليل لسبب عدم عبادة الشيطان.

وفي قوله : ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ معنى استلزامي، يمثل «تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ تُوجِبُ

- الموضع الأوّل : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي طلبي (يَا أَبَتِ)؛ يتمثل في النداء، والمعنى المستلزم من النّداء هو زيادة تأكيد ما أفاده النّداء الأوّل والثّاني.

- الموضع الثّاني : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي طلبي (لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)؛ والمعنى المستلزم عن هذا الفعل هو تبغيض لعبادة الأصنام؛ لأنّ في قرارة نفوس النّاس بغض الشّيطان والحذر من كيده؛ وذكره للفظ الشّيطان بدلا من عباد الأصنام إفصاح منه عن فسادها وضلالها.

قال تعالى : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ[1] أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾، ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي طلبي (يَا أَبَتِ)؛ يتمثل في النداء، والمعنى المستلزم هو التّوكيد.

قال تعالى : ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)﴾.

- الموضع الأوّل : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي طلبي (أَرَاغِبٌ)؛ يتمثّل في الاستفهام، قال الزّمخشري : «لمّا أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات،

غَضَبَ اللَّهِ فَتُفْضِي إِلَى الْحِرْمَانِ مِنْ رَحْمَتِهِ، فَمَنْ كَانَ هَذَا حَالُهُ فَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ لَا يُتْبَعَ». الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، ج 16، ص 117. وفي ذكر لفظ الشيطان مكررا «تَنْبِيهًا إِلَى النَّفْرَةِ مِنْهُ، وَلِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مَوْعِظَةً قَائِمَةً بِنَفْسِهَا. وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى يَا أَبَتِ قَرِيبًا». الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، ج 16، ص 117.

1- المعنى المستلزم من قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ التّحذير، كما أنّ تعبير إبراهيم عليه السّلام «بِالْخَوْفِ الدَّالِّ عَلَى الظَّنِّ دُونَ الْقَطْعِ تَأَدُّبٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى بِأَنْ لَا يُثْبِتَ أَمْرًا فِيمَا هُوَ مِنْ تَصَرُّفِ اللهِ، وَإِبْقَاءً لِلرَّجَاءِ فِي نَفْسِ أَبِيهِ لِيَنْظُرَ فِي التَّخَلُّصِ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ بِالْإِقْلَاعِ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ». الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، ج 16، ص 118.

أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل يا أَبَتِ بيا بنيّ، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد»[1].

- الموضع الثّاني : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ)؛ وهو من اللزوميات أو الوعديات، والمعنى المستلزم من هذا الفعل هو التّهديد الشّديد لوجود أدوات التّوكيد، وكذا فعل الرجم وهي كناية مشهورة في معنى القتل.

- الموضع الثّالث : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي (وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)؛ ويتمثل في فعل الأمر، والمعنى المستلزم من الفعل (اهجرني) -أنّه لمّا هدّده بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم، وبعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالمته- هو التّحقير؛ يقول الطاهر بن عاشور : «وَإِنَّمَا أَمَرَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ ابْنَهُ بِهِجْرَانِهِ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِأَنَّهُ هُوَ يَهْجُرُهُ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْهِجْرَانَ فِي مَعْنَى الطَّرْدِ وَالْخَلْعِ إِشْعَارًا بِتَحْقِيرِهِ»[2]، وقال الزمخشري؛ «لأنّ لَأَرْجُمَنَّكَ تهديد وتقريع»[3].

قال تعالى : ﴿قَالَ سَلَامٌ[4] عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي

1- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 20.

2- الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، ج 16، ص 120.

3- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 21.

4- قوله تعالى : ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾، المعنى المستلزم من هذا السلام «سَلَامٌ عَلَيْكَ سَلام توديع ومتاركة. وَبَادَرَهُ بِهِ قَبْلَ الْكَلَامِ الَّذِي أَعْقَبَهُ بِهِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا يَسُوءُهُ ذَلِكَ الْهَجْرُ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرْضَاتِهِ». الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، ج 16، ص 122.

حَفِيًّا (47)﴾[1]، ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي (سَأَسْتَغْفِرُ)؛ الذي يندرج ضمن الإلزاميات؛ لأنّه وعد بالاستغفار في المستقبل لدلالة السّيف عليه، ورغم ما صدر من آزر من سوء ردّ في حقّ إبراهيم -عليه السّلام- إلاّ أنّه كان حرصا على هداية أبيه؛ وعلّل ذلك بما يترتب على ذلك الاستغفار من رجاء المغفرة.

قال تعالى : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)﴾[2].

- الموضع الأوّل : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي (وَأَعْتَزِلُكُمْ)؛ الذي يندرج ضمن الإعلانيات، والمعنى المستلزم هو أنّ إبراهيم -عليه السّلام- أَظْهَرَ الْعَزْمَ عَلَى اعْتِزَالِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَتَوَانَى فِي ذَلِكَ، وَلَا يَأْسَفُ لَهُ؛ إِذَا كَانَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ... ورَأَى إِبْرَاهِيمُ أَنَّ هِجْرَانَهُ أَبَاهُ غَيْرُ مُغْنٍ؛ لِأَنَّ بَقِيَّةَ الْقَوْمِ هم عَلَى رَأْيِ أَبِيهِ فَرَأَى أَنْ يَهْجُرَهُمْ جَمِيعًا، وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ وَأَعْتَزِلُكُمْ.

وَضَمِيرُ جَمَاعَةِ الْمُخَاطَبِينَ عَائِد إِلَى أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ تَنْزِيلًا لَهُمْ مَنْزِلَةَ الْحُضُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ؛ لِأَنَّ أَبَاهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَأَمْرَهُمْ سَوَاءٌ، أَوْ كَانَ هَذَا الْمَقَالُ جَرَى بِمَحْضَرِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ. وَعُطِفَ عَلَى ضَمِيرِ الْقَوْمِ أَصْنَامَهُمْ لِلْإِشَارَةِ إِلَى عَدَاوَتِهِ لِتِلْكَ الْأَصْنَامِ إِعْلَانًا بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ»[3].

- الموضع الثّاني : ورد في الآية الكريمة فعل إنجازي (وَأَدْعُو رَبِّي)؛ الذي يندرج ضمن الإعلانيات، المعنى المستلزم بعد الْإِعْلَانَ بِأَنَّهُ يَدْعُوَ اللَّهَ

1- قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، فعل كلامي إخباري، ومعناه المستلزم هو تعليل لما يتضمنه الوعد بالاستغفار رجاء المغفرة.

2- قوله تعالى : ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾، أسلوب خبري، يستلزم معنى الرجاء، كما يظهر معنى مستلزم آخر وهو «فِي إِعْلَانِهِ هَذَا الرَّجَاءَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ تَعْرِيضٌ بِأَنَّهُمْ أَشْقِيَاءُ بِدُعَاءِ آلِهَتِهِم». الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، ج 16، ص126.

3- الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، ج 16، ص 122.

احْتِرَاسًا مِنْ أَنْ يَحْسَبُوا أَنَّهُ نَوَى مُجَرَّدَ اعْتِزَالِ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ فَرُبَّمَا اقْتَنَعُوا بِإِمْسَاكِهِ عَنْهُمْ، وَلِذَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ بِعَكْسِ ذَلِكَ يَدْعُو اللهَ الَّذِي لَا يَعْبُدُونَهُ.

وَعُبِّرَ عَنِ اللهِ بِوَصْفِ الرُّبُوبِيَّةِ الْمُضَافِ إِلَى ضَمِيرِ نَفْسِهِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى انْفِرَادِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ رَبُّهُ وَحْدَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ، فَالْإِضَافَةُ هُنَا تُفِيدُ مَعْنَى الْقَصْرِ الْإِضَافِيِّ، مَعَ مَا تَتَضَمَّنُهُ الْإِضَافَةُ مِنَ الِاعْتِزَازِ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ إِيَّاهُ وَالتَّشْرِيفِ لِنَفْسِهِ بِذَلِكَ.

4. استراتيجية المقطع الحوري

قبل تحليل المقطع أوردّ أن أنقل هذه الفقرة بطولها -ذكرها الطّاهر بن عاشور في تفسيره- لأنّها لخّصت جيّدا التّحليل، قَالَ الْجَدُّ الْوَزِيرُ رَحِمَهُ:

«عَلِمَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ فِي طَبْعِ أَهْلِ الْجَهَالَةِ تَحْقِيرَهُمْ لِلصَّغِيرِ كَيْفَمَا بَلَغَ حَالُهُ فِي الْحِذْقِ، وَبِخَاصَّةِ الْآبَاءُ مَعَ أَبْنَائِهِمْ، فَتَوَجَّهَ إِلَى أَبِيهِ بِخِطَابِهِ؛ بِوَصْفِ الْأُبُوَّةِ؛ إِيمَاءً إِلَى أَنَّهُ مُخْلِصٌ لَهُ النَّصِيحَةَ.

وَأَلْقَى إِلَيْهِ حُجَّةَ فَسَادِ عِبَادَتِهِ فِي صُورَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَنْ سَبَبِ عِبَادَتِهِ وَعَمَلِهِ الْمُخْطِئِ، مُنَبِّهًا على خطئه عِنْدَ مَا يَتَأَمَّلُ فِي عَمَلِهِ، فَإِنَّهُ إِنْ سَمِعَ ذَلِكَ وَحَاوَلَ بَيَانَ سَبَبِ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِ لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مَقَالًا؛ فَفَطِنَ بِخَطَلِ رَأْيِهِ، وَسَفَاهَةِ حِلْمِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ عَبَدَ حَيًّا مُمَيِّزًا لَكَانَتْ لَهُ شُبْهَةٌ مَا.

وَابْتَدَأَ بِالْحُجَّةِ الرَّاجِعَةِ إِلَى الْحِسِّ؛ إِذْ قَالَ لَهُ ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾، فَذَلِكَ حُجَّةٌ مَحْسُوسَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقَوْلِهِ ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾.

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى دَفْعِ مَا يُخَالِجُ عَقْلَ أَبِيهِ مِنَ النُّفُورِ عَنْ تَلَقِّي الْإِرْشَادِ مِنِ ابْنِهِ بِقَوْلِهِ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مَرْيَم: 43].

فَلَمَّا قَضَى حَقَّ ذَلِكَ انْتَقَلَ إِلَى تَنْبِيهِهِ عَلَى أَنَّ مَا هُوَ فِيهِ أَثَرٌ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ أَلْقَى إِلَيْهِ حجَّة لَاثقة بِالْمُتَصلِّبِينَ فِي الضَّلَالِ بِقَوْلِهِ : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مَرْيَم: 45]؛ أَيْ إِنَّ اللَّهَ أَبْلَغَ إِلَيْكَ الْوَعِيدَ عَلَى لِسَانِي، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَجْزِمُ بِذَلِكَ فَافْرِضْ وُقُوعَهُ فَإِنَّ أَصْنَامَكَ لَمْ تَتَوَعَّدْكَ عَلَى أَنْ تُفَارِقَ عِبَادَتَهَا.

قَالَ : وَفِي النِّدَاءِ بِقَوْلِهِ : ﴿يَا أَبَتِ﴾ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ تَكْرِيرٌ اقْتَضَاهُ مَقَامُ اسْتِنْزَالِهِ إِلَى قَبُولِ الْمَوْعِظَةِ؛ لِأَنَّهَا مَقَامُ إِطْنَابٍ»[1].

تمحور قصّة إبراهيم -عليه السلام- في هذه السّورة على مشهد حوراي بين إبراهيم حامل الرّسالة وأبيه المولع بآلهة آبائه؛ فهو حوار بين الحقّ والباطل، كان فيه إبراهيم -عليه السلام- مبادرا إليه بخطاب التّلطف والتّودد، وكانت القصديّة لا تنفك عن اللّغة من خلال الاستراتيجية الآتية:

استعمال استراتيجية النّداء التّوددي بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ جاعلا إيّاها مطلعا لكلّ حججه فتكرّرت أربع مرات؛ والنّداء فعل لغوي توجيهي يلفت انتباه المخاطب إلى محتوى فضوي يشتمل عليه الفعل اللّغوي اللاحق لفعل النّداء، وهو الاستفهام.

وبعد أن استهل إبراهيم كلامه بقوله ﴿يَا أَبَتِ﴾ عمد إلى توظيف الاستفهام كحجّة يلقيها على أبيه، بسؤاله عن سبب عبادته لما لا جدوى منه في قوله: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42)﴾.

ثمّ بعد ذلك يأتي النّهي في قوله ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)﴾.

إنّ انتخاب إبراهيم استراتيجية السّؤال أليق من سواها في هذا المقام لسببين :

1- المرجع السابق، ج 16، ص 114.

- الأوّل دفع المتلقي إلى رصد الحجج، والبحث عن دعائم عبادته؛ ولكن بعد البحث لا يجد حجّة يدفع بها عن آلهته، والْوَجْهُ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ الاسْتِفْهَامَ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقِيقَتِه ... وَمُكَنًّى بِهِ عَنْ نَفْيِ الْعِلَّةِ الْمَسْئُولِ عَنْهَا بِقَوْلِهِ ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّعْجِيزِ عَنْ إِبْدَاءِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ، فَهُوَ مِنَ التَّوْرِيَةِ فِي مَعْنَيَيْنِ يَحْتَمِلُهُمَا الِاسْتِفْهَامُ.

- أما الثّاني فإنّ الاستفهام لتبيين السّبب هو أليق بخطاب التّلطف من النّهي والأمر، ولاسيما في أوّل التّحاور، فكان فعل الاستفهام بمثابة مقدّمة أولى، والتّحول إلى فعل إخباري ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ... (43)﴾، ثمّ التّحول إلى فعل أمري ﴿... فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)﴾ ليكونا فعلي : «الإخبار والأمر» بمثابة مقدّمة ثانية.

وبعد ذلك كلّه يصل إلى النّتيجة المنشودة ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾.

وقد استعمل فعل النّهي ليكون خطابا حاسما قاطعا، وإن كان النّداء ﴿يَا أَبَتِ﴾ ما زال يلقي بظلال التّودّد على الخطاب، فضلا عن انتاجه صفة (الرَّحْمَنِ) لبث الطمأنينة في نفسه، ناهيك عن تعزيز الحجّة بذكر العواقب ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾؛ وهو توجيه يعود فيه إبراهيم إلى استراتيجية التّوجيه المتأدّب.

وبالعودة إلى شكل الحوار فهو حوار تنازعي يجمع بين نقيضين : أباه (الطّرف الثّاني) الذي تبنى خطاب التّهديد والوعيد، وتظهر اللّغة فيما يأتي:

عدل آزر عن منادة ابنه بالمثل فلم يقل له (يا بني) في مقابل قول إبراهيم ﴿يَا أَبَتِ﴾ زجرا له.

استخدام آزر للاستفهام الحجاجي ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ... (46)﴾ الخارج عن حدّ طلب الإجابة إلى الإنكار والاستبعاد، رفضا لعرض إبراهيم مشوبا بالغضب لآلهته.

التّحول إلى خطاب التّهديد المباشر ﴿... يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)﴾ باستعمال فعل الأمر للدّلالة على الحسم والقطع؛ فضلا عن الدّلالة المعجميّة للأفعال (تَنْتَهِ، أَرْجُمَنَّكَ، اهْجُرْنِي) المساوقة لخطاب التّهديد والعنف.

وبعد هذا يعاود إبراهيم خطابه التّوددي ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47)﴾ مختتما حواره مع أبيه بفعل توجيهي آخر وهو فعل الرّجاء ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)﴾ بعد ما يئس من استجابة أبيه وقومه لما يدعوهم إليه.

وحتى نستكمل بنية المفارقة في هذا الحوار نتلمس استجابة الدّلالات المعجميّة لبعض المفردات لهذه المفارقة، حيث شمل النّص على ألفاظ وعبارات متقابلة دلاليّا عززت بنية المفارقة لغويّا لما لها من أثر حجاجي: (الرّحمن / الشّيطان، وليّ / عاصيّ، حفيّ / شقيّ، يا أبت / يا إبراهيم).

■ المصادر والمراجع ■

■ أوّلا: المصادر والمراجع باللّغة العربيّة

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ)، 1407 هـ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3.
- أحمد المتوكل، 1986م، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط1.
- أحمد بن مصطفى المراغي (ت 1371هـ)، 1946 م، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1.
- آن روبول وجاك موشلار، 2003، التّداولية اليوم، تر سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، بيروت، دار الطليعة، ط1.
- دومينيك مانغنو، 2008م، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1.
- روبيت ديبوغراند ولفغانغ دريسلر، 1992م، مدخل إلى علم لغة النص، تر إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مطبعة دار الكتاب، ط1.
- شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت 1270هـ)، 1415 هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- طه عبد الرحمن، 1998م، اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، 2004م، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1.

- فرانسواز أرمينكو،، المقاربة التّداولية، تر سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت.
- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ)، 1984 هـ، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس.
- محمود أحمد نحلة، 2002م، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1.

■ ثانيا: المصادر والمراجع باللغة الأجنبية :

- Anne Reboul J. Moesculer. 1994 .Dictionnaire encyclopédique de pragmatique. Seuil.
- Grice H P. 1975. logic and conversayion. In Syntax semantics. 3 speech arts Cole and Morgan.
- John Austin. 1970. Quand dire c'est faire. Traduit de l'anglais par Gilles lane. Seuil. Paris.
- Nathalie Garrie et Frédéric Calas. 2007. Introduction à la pragmatique. Hachette.
- O. Ducrot, (1980) Dire et ne pas dire principes de sémantique linguistique, Editions Harman, Paris, 2ème éd.